سلسلة شهادات سورية 14

يوميات وقصائد

علي جازو

بيت المواطن
للنشر والتوزيع

يوميات وقصائد

علي جازو

يوميات وقصائد

سلسلة شهادات سورية -14- يوميات وقصائد
علي جازو

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: José Ruiz y Blasco
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2015

ISBN: 978-9953-583-60-0

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من المنظمة
الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

إلى ساعات العزلة وساعات الضعف التي جعلتني
أحبّ كل أولئك الذين لا أعرفهم

يوميات

ستكون هناك ضفادع كثيرة

في ظهيرة جافة، خرجتُ برفقة «مقداد»، للتنزه وتمضية الوقت. حطّ بنا السير جنب مستنقع صغير. مدينتنا كلّها واطئة، صغيرة، ضيقة. قال «مقداد»: هذه المياه الراكدة جيدة جداً، انظرْ إليها، فنظرتُ، أضاف: ستكون هناك ضفادع كثيرة هذا الربيع، وإن لم تجفّ المياه سننعم بغنائها في ليالي الصيف. جلست على حجر واستلقى على جنبه. دخنت سيجارة، وأشرت إلى نهاية النزهة بأن وقفتُ، فنهضنا لنأخذ صورة أمام المستنقع التذكاري. كنا نمثّل. كان ذلك حقيقياً مؤلماً. الأشياء التي نحبها ولم نرها كانت تحوم حول رأسينا الكئيبين. لم نسمع موسيقا منذ أشهر طويلة. ذكّرته بوجود أربع عشرة إذاعة في سورية، مع إذاعات تركية رديئة، فردّ عليّ بأن أمعن النظر في جبال زرقاء بعيدة، هكذا لمسنا الجبال بنظراتنا الممدودة عبثاً، ابتعدنا وعثرنا هناك في المدى المفتوح على بقع خضراء أعلى قرىً بدت كما لو رسمت في لوحات ريفية قديمة: هي الموسيقا هناك، ألا تراها؟!

كنا نعرف، دون أن نجرؤ على إعلان ما نعرف على الملأ، أن الثورة نهاية اليأس، أن هذه النهاية يمكن أن تستغرق ما تبقى من حياتنا، بعد أن دمرت الثورات القديمة ما مضى منها. لكن المتحمسين والخائفين

والحريصين والمعتدلين واللاأدريين الذين هم وحدهم يعرفون ما يريدون، وما يسمى المجتمع الأهلي عموماً، قرروا فجأة الاجتماع بهمّة عالية لم تُثِر فيّ غير الخشية! بداية الأمر فاق عددهم المئة، وما كانت غرف المنزل تسعهم، وكثير منهم ظلوا واقفين أمام باب حجرة الضيوف، متزاحمين رافعين رؤوسهم. المدخنون منهم وجدوا الفرصة سانحة، ذلك أن التدخين وحده ينقذهم من ضجر الانتظار وفوات فرصة المشاركة العضوية. رجل بدين قصير ملَّ من الجلوس، حدثني عن اللغة الكردية، كان يحمل ورقة عليها كلمات كردية، واقترح، أثناء المشي للتريّض قليلاً، في الصالون الذي تحوّل إلى غرفة استراحة، أن يعقد الاجتماع في المركز الثقافي الحكومي: «إنه لنا!»، أكّد الملكية، فوافقته على الفور، ورأيت الاقتراح رائعاً، بسبب استحالته، فالمركز لم يزل تحت سيطرة البعث والأمن. أحد كبار المدخنين أمسكني أمام مدخل البيت، وكنت أكثر ضجراً من أن أسمع أي شيء، لكنني سمحت لنفسي بإجراء نقاش اعتباطي معه، حدّ غرقي فيه أبله لاحقاً. كان الرجل طويلاً جداً، أسمر داكن الوجه، ويرتدي بدلة زيتية عكرة، يبدو أنه لا يملك سواها. قال: أنا حزبيٌّ منذ ثلاثين سنة، ويقصد لمن لا يعرف مدلول هذه الكلمة في منطقتنا المنكوبة، أنه منظّم ضمن أحد الأحزاب الكردية في سورية، وهي جمعيات سرية حسب تصنيف النظام المخابراتي، وعند الحاجة إلى القبض على أحد منهم، تتهمه بالانتماء إلى جمعية محظورة تهدف إلى اقتطاع جزء من الأراضي السورية وضمها إلى دولة أجنبية. قال الحزبي العريق: أسكن الريف، ينبغي أن أستيقظ باكراً، فلديّ بضعة أغنام أخرجها للرعي، لا أستطيع السهر. أضاف: الأوضاع خطيرة، ينبغي أن نكون حذرين، ألّا نستعجل، أنت تعرف أنه يمكننا...، فجأة قال لي، بعد أن اقترب من النافذة التي يعقد خلفها الاجتماع المئويّ الضخم: تعال اقترب! وأثناء ذلك رمى علبة دخانه الفارغة أسفل شجيرة عسلية

كئيبة، وسط حصى معتم. اقتربتُ ولم نسمع شيئاً. كل ما أعرفه أن الجو كان خانقاً، ويتمنى المرء في حال كهذا أن ينفضّ الاجتماع على الفور.

كان التجار يضغطون على الأطباء ويحتفون بهم لمعرفتهم أن الأطباء جادون يستحقون الاحتفاء، إنهم جادون وقادرون على تحمّل الضغط الاحتفائي، وكان الأطباء كمحامين يبتسمون في وجه المرضى كما هي العادة، حاملين ثقل الابتسامات والاحتفاءات لتغدو أثقل، ولا يبقى أمام المرضى سوى أن يضغط بعضهم على بعضهم الآخر، وفي الآن نفسه يضغطون على الله الذي باسمه يبقى التجار فوق الأطباء الذين يبقون فوق المرضى، في هيكل مقدس ضخم ندعوه الحياة الاجتماعية، ويمكن لآخرين تسميته بالشرف أو الحفاظ على العادات والتقاليد. علمت أن ذخيرة الاجتماع تضمنت الاتفاق على عقد اجتماع آخر بعد تقليص عدد المدعوين وإزالة الشحوم الزائدة، وما ساءني في الأمر أن الاختيار وقع مرة أخرى على بيتنا. سأضطر تحت أحجار الواجب أن أحمل فناجين القهوة المرّة وكؤوس المياه المثلجة أكثر من مرة، وهي مشروبات مدرّة للبول وتؤدي بسبب الإفراط في تناولها، وهو الأمر الوحيد الذي يبدو الجميع دون استثناء متفقين عليه، إلى زيادة التنبيه الذي يعني الصراخ لا غير. على كل حال، جرى الاتفاق إذاً، بعد أن تم تصنيف المجتمع الأهلي أخيراً، ثلاث فئات يتم الاتفاق انتخاباً على تمثيلها، وهي: الحركة الكردية، ويقصد بها المنظّمون ضمن الأحزاب (عددها من 12 إلى 14، ولا داعي لذكر أسمائها المتاهية)، والرجال الوطنيون المستقلون، ويقصد بهم الكبار في العمر، أما الفئة الثالثة فاقتصرت على الشباب، والشباب كلمة درجت أخيراً في كل محاولة فكرية أو نقدية أدبية أو أهلية. والمجتمع الأهلي تعبير إبداعي حاذق، وحلَّ علينا كالصاعقة، وكان المرجو منه نسيان مصطلحات كالمجتمع المدني ونشطاء حقوق الإنسان، وهذه أيضاً عصيّة على التصنيف.

قمت بواجب الضيافة، ونقصتنا الأقلام والأوراق، فأرسلت أخي الصغير على وجه السرعة، فأتى بأربعة عشر قلماً أزرق، لم يبق منها بعد الاجتماع سوى ستة، وقد قابلت النقص المتوقع بشتائم لائقة حزينة تافهة. لم يدخر الشباب جهداً في تعكير أجواء الاجتماع، بعد أن لامهم الكبار على مسبّات أطلقوها في آخر مظاهرة، وكان الحزبيون أكثر راحة وهدوءاً، وسددوا لكمات فرعية بعضهم ضد بعضهم الآخر، فهذا هو عملهم الحقيقي، وبعد كثير من النقاش النظري عما يجب ولا يجب، تم الاتفاق على ضرورة توحيد الشعارات، واستدعى ذلك وجود صوت قوي، واقترح أحدهم الاستعانة بمكبرات صوت حديثة، ورد أحد الشباب بأن ثمن كل واحد منها أكثر من ثلاثة آلاف، فتدخل آخر وقال: الثمن كبير، نستطيع بثمنها شراء مضخم صوت، ويدعى في منطقتنا «جهاز»، فقال أحد الحزبيين: سيصادر الأمن الجهاز، فطغى الصمت وخفّت الحماسة وشعر الكثيرون بالعجز، فقال أحد الشباب: لنضع أجهزة صغيرة على مولدات دراجات نارية، تدخل أحد الكهول: أنا لا أحب الدراجات، أصواتها مزعجة. وسرعان ما جاءه الرد: هذا اقتراح فاشل، سيصادر الأمن الدراجات ويعتقل أصحابها، إلا أن أحد الكبار توصل إلى حل سحري: اسمعوا، وجدت الحل! لدي جار بائع فروج، لديه مكبرا صوت قديمان. يكاد يصل صوتهما إلى مئة رجل في ثانية واحدة. صحيح أن صوتهما ضعيف وخشن وغير واضح، لكن يمكنني الاستعانة بهما. ولم أعرف حينئذ أينبغي أن أضحك أم أبكي، لكنني قمت على الفور، وأتيت بطقم جديد من فناجين القهوة البلاستيكية، وشرعت في توزيعها. وكان بين اللجنة رجل مريض بالسكري، أحس بالدوار فجأة، وكاد يسقط، وقام أخي كالعادة بإيصاله إلى البيت، وفي الطريق حمل حفنة من السكر داخل كأس خزف بيضاء صغيرة جداً، فالرجل المريض سيحتاج إلى لحسات متلاحقة من السكر، حتى يصل إلى البيت. وهذا ما حصل

ليلتئذ: يمسك الرجل بذراع أخي، وفي يده الأخرى كأس السكر الصغيرة، وفي الطريق يسأله الجيران: ما بك يا أستاذ؟ هل نسعفك إلى المشفى؟ ما نتيجة الاجتماع؟ أصحيح أنكم ستنفون البعثيين خارج المدينة؟ متى تأتينا الدبابات؟ هل صحيح أننا يجب أن نهرب إلى تركيا؟ نحن لا نثق بتركيا، نحن لا نريد ترك منازلنا! نرجوكم كفوا عن المظاهرات، الدولة أقوى من الشعب! ويطمئنهم الرجل الذي يحتاج إلى أن يطمئن على نفسه: لا تخشوا شيئاً، كل شيء على ما يرام.

الوقت يضحك على أشيائه الحزينة، والشوارع غداً تمتلئ بفتيات وفتيان يفضلون «ميسّي» على الثورة، والكسل على العمل، والتلفزيون على القراءة. هذا ما خلص إليه فكري اليائس وتشاؤمي العريق. سيأكلنا التلفزيون، ستأكلنا العزلة. أجابني «مقداد»: الجيل الجديد أفضل منا. هو من أجبر الكهول على الخروج. على الأقل لهؤلاء حيز فردي أوسع مما كان لنا. هم أول من حمل الشموع إلى ليل المدينة، حملوها صامتين. لم يكن ذلك سهلاً. عندما أُحرق السجن المركزي في الحسكة، لم يحمل أحد شموع الليل، عندما قُتل ثلاثة شبان قبل عشرين سنة. جرفنا شعور عاطفي رائع نحو أناس تمنَّينا لو كانوا مكاننا قبل عشر سنين، عشرين سنة، ولأنها خيالات تعويضية هاذية ومحقة، فإن تأثيرها يتعاون على دعم خيبتها الشريفة. كنا نفكر دون أن ننسى تفكّكنا إلى حياة شبحية، وكان ذلك جزءاً أصيلاً من تحويلنا للفشل إلى كلمات عائمة كالضفادع. كنا جدّيين فتحجّرنا في نقاش مثالي، كنا نعلم أن كلماتنا المضجرة تطير صوب هواء جبال خفيضة، وتعود منهكة لتلتصق بثيابنا.

في انتظار المازوت

«سنشعل مدفأة واحدة، مدفأة الصالون فقط، لن نستخدم غيرها. ما رأيكم؟»، أضاف ظانّاً أنه عثر على حل سيفاجئ الجميع: «المدفأة القديمة الصغيرة، تلك التي لا تصرف إلا القليل من المازوت، وهي، أيضاً، سرعان ما تدفئ البيت». قال الفتى ذو الجسد الضئيل والوجه الناعم المدوَّر كبرتقالة صفراء صغيرة.

لم تحمل نبرة صوته علامة أي سؤال، إذ إنه أطلق الكلمات كمن يصرّح عن فرح غامر. ابتسمت ابنة عمّه التي تكبره بسنة ونصف، وأضافت مؤكدة رأيه ومشجعة: «نعم، هذا أفضل. سنجلس كلنا هنا، الحجرة واسعة، نأكل فيها، ندرس ونكتب، نتفرج على التلفزيون، وعندما يحين موعد النوم، يدخل كل واحد منا تحت لحافه بسرعة. ما إن تمدّ اللحاف الشتوي السميك على جسمك، حتى يسري الدفء من حولك، فلا تعود تشعر بالبرد أبداً». قلتُ في نفسي، وكادت دمعة متقلصة أن تضرب قلبي: شكراً للجدة الراحلة، لقد تركت عدداً كافياً من اللحف الصوفية السميكة، لولاها لكنا في حرج شديد. البيت كبير والغرف كثيرة، معتمة وباردة، فنحن نعيش في الطابق السفلي، وهو أقرب إلى قبو، وكان أهلي أعدّوه مسبقاً ليكون مستودعاً، لكننا اضطررنا إلى السكن فيه، لأن البرد في الطابق الثاني لا يحتمل. أقبلت والدتي من جهة المطبخ، وكان مشيها

أقرب إلى الزحف، إذ لم تعد قادرة على رفع قدميها كما كانت من قبل تمضي غير آبهة، تتنقل من الزريبة إلى كوخ الدجاج، ومن التنور إلى المنزل الريفي دون مشقة ودون تذمّر: شتاء هذه السنة حلَّ باكراً، ليس هذا أوان البرد. ليلة أمس ظننت أن المياه ستتجمد. حسناً فعلنا بشراء تلك البقرة، على الأقل هناك بعض الحليب بين يوم وآخر. تعتقد أمي أنها تدير اقتصاد المنزل بطريقة ذكية، تقول إنها الأكثر حرصاً، أما الباقون فلامبالون ويغلب عليهم الطيشُ وقلة التدبّر.

أذكر البيت الطيني الآن، ونسمة من شوق غامض تحرك رموش عيني، تحمل نظرتي إلى داخل غرفة طويلة منخفضة، مع ملحق مربع للمونة والنوم، ينتهيان بغرفة أصغر تقوم مقام المطبخ والحمام معاً. لكن، يا للحسرة! لقد مضى دفء ذاك البيت، وحلّت محله المخازن الإسمنتية وأدوات رش المياه والمبيدات الزراعية.

أبي واقف قرب الهاتف، يحمل نظارته عن طرف الحامل الخشبي الذي يسند الجهاز، وتحته رفٌّ صغير لا يصل إليه الضوء، يحوي دليل أرقام الهاتف، إنه يبحث عن رقم «الكازيّة»: مرحبا. دبِّرْ لنا ثلاثة براميل. نعم، ستمئة لتر من فضلك! لا تنسَ، نحن ثلاث عائلات، مئتا لتر لكل بيت. ماذا؟ اللتر بعشرين ليرة! أنت تعلم كيف هي حالنا هذه السنة... شكراً، شكراً!

تعود أمي إلى المطبخ، تحمل صحناً من العدس، تقترب من النافذة المضاءة بشمس النهار، ثم تبدأ في تنقية حبات العدس من بقايا الشعير وحصيّات حجر المطحنة. أخي الأصغر البدين يصرخ كالعادة: المؤتمر، المؤتمر هو الذي سيحمي البلدة. نحن في انتظار قراره تشكيل لجنة حماية من قبل المؤتمر الوطني الكردي. ترد أختي: اسكتْ، أنت مزعج، صوتك مزعج كالدبابة! يرد عليها: انقلعي من وجهي.. يجب أن نمسك باللصوص! من أربعة أيام، فتح اللصوص ثلاثة حوانيت وصيدلية. يقال

إن أحد الحوانيت فُتح فترة الظهيرة، رغم أنه يقع على الشارع العام، قرب جامع صلاح الدين القريب من مفرزة الأمن السياسي. سرقوا نحو أربعين ألف ليرة، إضافة إلى علب دخان كثيرة، أسعار علب التبغ في ارتفاع، ومن الصيدلية أخذوا أدوات تجميل ومراهم جلدية غالية. هذه علامة جرأة خطيرة، إذ يبدو أنهم لا يبالون بأحد، ولا يخشون عقاب أحد. يأتي صوت أمي من المطبخ مع رائحة الشوربة الدافئة: وماذا تفعل الشرطة؟ أين هو مدير الناحية؟! يرد أبي: يجب أن تخرج دوريات ليلية، يجب عقد اجتماع مع مدير الناحية. أقول في سرّي: يحتاج رجال الأمن إلى حماية، ومدير الناحية بلا حول ولاقوة. أمس رأيت واحداً منهم، كان جالساً في مكتب المختار المطل على رصيف شارع البلدية، رأسه المستطيل دون طاقية، فمه يكاد يصل إلى وجه ورقة يتعجل كتابتها. أعرف السبب، سيدسّ المختار مئتي ليرة في جيبه. الشرطي فقير، المختار فقير، مدير الناحية أيضاً فقير.

يرنّ جرس الباب الخارجي، أطفال عمي الآخر عادوا من المدرسة، أسمع ضحكاتهم المتزاحمة. أكاد أسمع لهاث ألفَيْ طفل يمرون في شارع منزلنا كل صباح. يا إلهي، بلدتنا مليئة بالأطفال والبرد والضحك الصعب والفقر! بلدتنا خيالية جداً. تصرخ أمي: الطعام جاهز، يالله، يالله! لا تدعوا الشوربة تبرد! أختي تركض: أريد ليمونة. ابن عمي يبتسم، ينظر إلى ساعة الحائط ذات الإطار البني المذهَّب: المباراة بعد ساعة ونصف، لن آكل الآن. كل قليلاً، أقول له، لكنه لا يرد. يعكس وجهه اللهفة التي لا يعنيها سؤالي بشيء. هذا الفتى مزيج من السخرية والصمت والتعجب والحيوية. سيلعب، ابن عمي يحب كرة القدم، ويحب دراجته الحمراء التي أرى مقودها من خلف نافذة المطبخ الذي تركت أختي على طاولته نصف ليمونة يلمعُ البردُ على قشرتها اللامعة الصلبة كما يلمع صباحٌ رطبٌ على أطراف غيوم الشتاء.

مخدَّتان إلى عائلةٍ حمصيّة

مضى أسبوعان، أصلُ الليلَ بالنهار، أتخيّلُ وأتذكّرُ وأنسى. شخص آخر يحيا معي. ليس ظلاً ولا طيفاً ولا روحاً. نومي لا يشبه النوم في شيء. أرى كوابيس مفزعة، وإذ ينتشر ضوء النهار ويتسرب إلى حجرتي، عبر نافذة مربعة جامدة الأضلاع، أُحسّني خائفاً من النهار أيضاً. يصلني صوتُ محرّك جرار البلدية، ما زال له قلبٌ ذلك الجرار الهرم، والدواليب العتيقة المنهكة تجرجر خلفها شوارعَ ضيقة. إنهم يرفعون القمامة الآن. آه لو يرفعون عني الخوف معها! السيّدات أكملن مشط العتبات بمكانس نباتية صفراء خشنة، والقصّابون أنهوا تعليق أجساد البقرات والخراف بكلّابات فضية لامعة. اللحمُ يحلمُ. أنا هناك، أبيَضُّ وأرتجفُ وأتجمّع وأتقطعُ، في ذاك اللحم الخاضع الحالم القوي. هذا ما يحدث كل يوم، كل يوم يحدث. المحامون يبحثون عن زبائن جدد، لا يملّون من البحث الجائع الشنيع، زبائن معتوهون مجبرون على الاستمرار في طلب الأمان القانوني المستحيل، لا يفكّون حرفاً بالعربية التي يجب أن يخضعوا لمعرفتها المتاهيّة، ولا يعلمون شيئاً عن القوانين. آه! حالما أنطق بهذه الكلمة يسودُّ كل شيء داخل قلبي، يتثاقل ويلتصق بحنجرتي، يكاد يخنقني. يا للعذاب المكتوم! كم هي معذبة ومهينة وصمّاء هذه القوانين. القاضي القصير البدين يزداد بدانة، يتضخم وجهه، لحم وجهه ينتفخ

حتى يغدو أكبر من رأسه، أثقل من مؤخرته؛ محظوظة وخائفة. لو لعب التنس أو «البينغبونغ» لما عاقبت البدانة وجهه الشاب. والده رجل مسنّ، يصلي ويخشى من سكتة قلبية. مساعد القاضي يواصل جمع نقود أكثر وأكثر من رشوات صارت أليفة، رشوات هي القانون الحقيقي. هذه الألفة نوعٌ من إجرام جديد مرغوب. لا أحد يصرخ. هذا ما يحدث كل يوم، كل يوم يحدث. الموظفون شنيعون، قساة القلوب. هذا دأبهم المستمر، وما نحن سوى خانعين بلهاء. أمي لا تعرف شيئاً عن القضاة، ولا عن الموظفين. تقول أمي إنها لو كانت درست إلى الصف التاسع، لذهبتْ من فورها إلى مدير الناحية، وكلمته بالعربية وجهاً لوجه، عن كل شيء. نعم، ما كانت لتخشى شيئاً، أي شيء. أمي لم تذهب يوماً إلى حلب، ولا إلى حمص، ولا دير الزور، ولا حماة، ولا إدلب ولا درعا، أمي، بحر خلقي، لم تر أي بحر في حياتها. مرة واحدة فقط، ذهبت إلى دمشق. كانت مريضة، المرض وحده حملها إلى العاصمة؛ كأنما في داخل المرض نفسه نوع من السفر والترحال، كأنما العاصمة ليست سوى دار للمرضى. هكذا يتحول السفر الوحيد إلى عقاب. أعود من جولة كئيبة. نادراً ما أخرج، ولا آتي معي إلى البيت بغير الإحباط. هذا سخف، سخف وكسل لا غير. أخي الصغير يفتح التلفزيون على قناة «العربية»، على «الجزيرة»، على «فرانس 24»، على «بي بي سي»، على «سكاي نيوز»، على «كوردستان تي في». هذا يجلب الغثيان. صور لا تنتهي. ثلاثة طلاب فقط داوموا اليوم. يقول أخي رداً على سؤالي عن سبب قدومه المبكر من المدرسة. المدرسة انتهت، كان يجب أن تنتهي منذ أربعين سنة، أقول في سرّي. من الأفضل لي أن أتحدث إلى أمي قليلاً. ظهرها إلى التلفزيون، تغطي حرارة الشمس كتفها اليسرى وجزءاً من قدمها الحافية ذات الكعب المشقوق. الضوء عذب وصغير وهادئ. النهار لم يزل في أوله. عدد القتلى، آه، لا أريد أن أذكر شيئاً عن عدد القتلى. مخدتان بين يديها

تبادلانها حديث الكائنات الصامت العظيم. إنها تزيل غطاءهما الأزرق الفاتح. سأغسل الأغطية. لمن هذه المخدات؟ أسأل أمي. إنها لعائلة من حمص. طلب والدك مني إرسال مخدات لها. جارتنا أرسلت لحفاً وأغطية. هناك نقص في المخدات. أمي تتكلم العربية بصعوبة، لكنها تفهم إذ تسمع العربية العاميّة، أما الفصحى فتكاد لا تفهم منها شيئاً، رغم نوبات ابتهاجها بتلاوة القرآن الكريم. أفتح البابَ الخشبي المطل على جنوب حوشنا الضيق، ثمة شجيرة صغيرة، ثمة وردة تواصل تفتّحها المسالم البطيء. لونُها يكفيها. لونُها يكفي العالم.

لا حياةَ دون القائد

سَيْرٌ بطيءٌ. ذلٌّ يمشي. بردٌ يابسٌ. لسعاتٌ تعضُّ رؤوسَ الأصابع. يدٌ ممدودةٌ. رجاءٌ خائبٌ. نظرةٌ مخنوقة الحوافّ. عينٌ تحترقُ بصمتٍ.

طلقاتٌ نارية تُصَوَّبُ إلى الأعلى، في ليالٍ جليدية، هي الصوت الوحيد يدخل بيوتنا المعتمة. مسلَّحو الـ «ب. ك. ك» يتسلَّون، يحمون الشعب، يهدِّدونه، يخيفونه. دأبٌ ميتٌ! ثقوبٌ سئمةٌ تصعدُ إلى هواءٍ فارغ. بالأمس استولوا على المخزون الاحتياطيّ لأربع محطات وقود. كل يوم يحصلون على 1000 ربطة خبز، كل ربطة ثمانية أرغفة، تباع إلى تركيا. تهريبٌ مربحٌ إلى الجارة العدوة! الخبز غالٍ، خبز الشعب غالٍ!

معلِّمُ مدرسةٍ. راتبٌ ممتازٌ محسودٌ، بلا عمل، يحصل على الراتب. قصير نشيط، يملك سيارة سوداء سريعة. راتبه لا يكفي لشراء أربعة دواليب، لكن سيارته سريعة، في خدمة الشعب، هو، مهرِّبُ سلاحٍ، خارج أوقات الدوام، مناضلٌ جديد! ثمة مدرِّسٌ آخر، محنّكٌ، قامة طويلة نحيلة، عين ثعلبية متبسِّمةٌ، مرابٍ، تاجرُ شنطةٍ، يحمل حقيبة هواتف مهرّبة. موزِّعُ الهواتف الرئيسي، فهو يعمل مدرِّساً يومين في الأسبوع، يدافع عن الـ «ب. ك. ك». «البابور» الجيد بخمسة آلاف ليرة. كان بألف، بألفين، طوال الصيف الماضي. حَصَلْنا على واحدٍ قديم. هديّةٌ من رجل ريفٍ لا يعرف شيئاً عن الأحزاب، لم يناضل بعد. حظٌّ جيدٌ لنا وله. ينبغي

إضافة الملح إلى المازوت. في وعاء فارغ من أوعية «الكولا» يُمْزَجُ الملحُ مع المازوت، يُخَضُّ جيداً. هذه هي نصيحة المهدي. حبات الملح تتجمع داخل أنابيب ضيقة. البابور لا يستجيب لنداء النار، نداء عيوننا المنتظرة الآسفة. فشلٌ آخر. لن نشرب شاياً هذا الصباح.

مضى يومٌ رابعٌ. لم أنزع جواربي عن قدمي. زوجان منهما لبستُ. الخارجيُّ كحليٌّ، الداخليّ رياضيٌّ من نوع رخيص، صناعة حلبية رديئة مؤذية ناجحة! صوْتُ أمّي: لا تخلعْ جواربَك، حتى إذا نمْتَ، لا تخلعها لئلا تبرد، برْدُ القدمين يبرد الجسمَ كلَّه، لمَ لا تردُّ؟

صباحٌ آخر. لم تصلنا الكهرباء حتى الآن. تفاحتان داكنتا الحمرة، كبيرتان ـ من نَفَخَ في بطنيْهما لتَسْمَنا إلى هذا الحدّ ـ تلمعان على غطاء طاولة المطبخ البني. بردٌ جحيميٌّ يفصل عيني عن التفاحتين. استراحةٌ قبل الدخول الصامت إلى بيت الأسنان الجائعة. ثلاثُ برتقالات يافاويّة، ممتلئات ماءً هادئاً عذباً. انتظارٌ هازئ، احتفالٌ كاملٌ، دونما صراخ! هواء الصباح يتكلم إلى التفاح والبرتقال، إلى مرايا الأشجار اللامرئية، إليّ، أرجوك يا هواء الصباح، يا ضوء الشمس البعيدة، إليّ أرسلا كلمةً واحدة، كمن يمدّ يداً رقيقة، يضعها برفق على كتفي.

أكادُ لا أتوقَّفُ عن التدخين. يسيلُ عرقٌ باردٌ أسفل إبطيَّ. بردٌ آخر، هذا العرقُ السائلُ الكريه!

يا للدفء، دفء مئتي ألف ليرة سورية! حوِّلْهُما إلى دولار، إلى ذهب. لا تبقَ غبياً يا أحمق. سنخسر على كل حال. لا مفرَّ من الخسارة، يا ناصحُ، يا عبْدُ. آه، تذكَّرْتُ. عشرون مليون كردي في تركيا، في كردستان تركيا. لم يتضامن معنا أحدٌ من أبناء شعبنا الكردي العريق. التضامن واجبٌ، واجبٌ محتالٌ. هذه هي جوهرة الشعب الواحد. كارثة، كارثة حقيقية الانتماءُ إلى شعب واحد.

المجلس الوطني الكردي.. مستنقع آخر يلاصق ويختلط مع مجلس شعب غربي كردستان. ضرورة قومية، المستنقع ضرورة ملحة لمن كان قلبه في طيزه. يا لخيالنا الشّرّجيّ العاطفيّ المحاصَر، كم يثمر وينشط في خلق مستنقعات قديمة بأسماء جديدة! مساء الثلاثاء، الأربعاء، لا فرقَ، في كل أسبوع، يصرخ مؤذِّنُ الـ «ب. ك. ك»، شابٌّ فقيرٌ متحمِّسٌ: «دون القائد، لا حياة دون القائد»!

ألا تسمعُ؟! لا حياة!

اجتماعٌ سريٌّ

أنجبَتْ أختي بنتاً ثانية. عندما سمعتُ صوتَها، عبر الهاتف، أدركتُ كم هي سعيدة. صوتٌ نقيٌّ، فرحان، وبه قوة غامضة تجذبك، تدفعك إلى المحبة. امتدادٌ رحبٌ لنور الصباح تألّقَ بدفءٍ داخل صوتها.

مضت ثلاثة أسابيع. لم تعثر أختي، بعد أنْ صارت أمّاً جديدة، ولا زوجُها، على اسم للطفلة التي سمعتُ نداءَها لمرة واحدة. أهوَ بكاءٌ حقاً؟! صراخٌ؟ ما كانَ صوتُ الطفلة بكاءً ولا صراخاً. شعرتُ أنها تناديني، أن نداءَها معنى اسمها.

بطيئاً ومغلقاً يكملُ الشتاءُ عمَلَهُ الثقيل في الوجوه والأصابع، في ملابس الرجال والنساء، على حوافّ شوارع ضيقة، شبه خالية. الليالي داكنة طويلة، والنظرات تلتصق بالبرد الذي يكاد لا يفارق جسدَ أحد.

ليلة أمس، تلقيتُ رسالةً لحضور اجتماعٍ سريّ. لم أفاجأ، لكني أضمرتُ كرهاً للأمر كلّه، وشعرتُ بخطئي قبولَ دورٍ لا يناسبني. دفعني إلى الموافقة واجبٌ، مصدره الخجل، لا الإيمان. طُلِب مني تقديمُ مساعدةٍ، لا غير، وها أنا ذا أغرق، حالي كل مرة، في وحل المساعدة الغريبة، وأخطاء الواجبات العمياء، والرضا الفاسد عن نفسٍ تظن أنها تقدّمُ العونَ.

هل أنا صفحة بيضاء! يمكن لأي كان، أي أحد، أن يكتب عليَّ ما يشاء؟

أعرف، أجل أعرف: وافقتُ دون إرغام، وعليّ إكمال ما يعقبُ موافقةً حرّةً. أول رجل صافحتُه: طويلٌ، به شيء من البدانة النشطة، أسمر، سُجِنَ منذ سنة تقريباً. قضى شهراً في منفردة «أمن الدولة» بدمشق، وتعرّفَ هناك، بعد أن تمّ تحويله إلى سجن عمومي، على مخبر للأمن عوقبَ لسبب تافه! أخبره المخبر أن أصول زوجته تعود إلى بلدة عامودا. هكذا يتم التعارف الرائع، لكنه تأخر كثيراً، تأخر أربعين سنة!

صاحبةُ البيت الطيني الدافئ، مكان اجتماعنا السري، لطيفة، كلُّها بدانة، لا يغطي رأسها سوى شعر أسود قليل، تعرج، تخدمنا بمودة حقيقية، تقدّم صحون الفواكة: تلمع تلال صغيرة من برتقال وموز وتفاح، يعلو كل تلة سكين ذات مقبض بلاستيكي أحمر. تبتسم السيدة لدى كل نظرة، لكنها، وكان هذا ما أربكني وآلمني، لا تنجح في محو الاستغراب والقلق عن ابتسامتها التي سرعان ما تتعب وتذبل. مسكينة لا تعلم شيئاً عنّا نحن المساكين، النشطين، أصحاب الأسرار الميتة!

شعره أبيضُ غزيرٌ، رأسه صلبٌ، لا شك إنه عنيد، الرجلُ الثاني الذي نسي أصابع يده في كفي، لأن نظرة عينه، من خلف نظارتها، علقتْ بجبهتي.

بنطالي أسود رقيق، قلبي بارد. هل من المناسب الآن إنْ أخبرتهم: آه، لم أستحم منذ عشرين يوماً، فقط أبدّل ملابسي الداخلية، أمي سافرت لكي تعتني بأطفال أختي، أبي سافر فجأة، وأنا أخشى ألا أتصرف بحكمة في غيابهما!

كان عليّ تقديم خلاصة عن ستة أشهر انتظرَتْ وانتظرتُ معها قدوم هذا اليوم. بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف، وتلقينا اتصالات أخرى، صحبني الرجل الأول إلى غرفة أخرى. تفضّل، هاتِ أخبرْني. كان هادئاً، وهذا

ما بعث الهدوء في نفسي. نعم، أستاذ! قلتُ له: عددهم اثنان وعشرون. متى موعد تهريبهم؟ سألته. خلال أسبوع ـ أجابني، وأضاف: اجعلْهم على دفعتين، سأنتظرهم في القرية، عندما يصلون أتولى أمر إيصالهم إلى الطرف الآخر. ألن يشكّ بهم أحد؟ لا، لا تقلق، إذا ما سألهم رجال الحاجز على الحدود، سنقول لهم إنهم طلاب، يسافرون لأجل الدراسة. كل واحد منهم سيدفع 2500 ليرة، أنا من سيدفع عنهم المبلغ. كان عليّ أن أؤكد له أنني أخبرتهم عن مدة التدريب التي ستستغرق شهراً، تقريباً، وأنهم سيلاقون متاعب كبيرة، وأن القسوة تنتظرهم هناك، في الجبال. إنهم نواة قوة احتياطية لنا، إذا ما أُجبرنا على استعمال السلاح. بعد عودتهم، سيقومون بتدريب شبّان آخرين. حسناً، هذا هو كل ما في الأمر.

بعد أن عدنا مرة أخرى إلى مكان جلوسنا، كانت سيدة البيت قد جهزت القهوة. فجأة شعرت أن عليّ المغادرة فوراً، كنت بحاجة إلى هربٍ ما. خشيت ألا تحملني قدماي. تمالكت نفسي أخيراً، وقفت على قدمي، ورفعوا نظراتهم معاً إلى وجهي: عفواً، أنا مضطر للعودة إلى البيت. صافحتُ الرجلين مرة أخرى، وأبديت سروري بالتعرف إليهما.

حالَ وصولي إلى البيت، رنَّ الهاتف من جديد: نعم أختي. كيف حالك؟ بخير، اسمعْ يا أخي، غداً تذهبُ إلى دائرة السجل المدني، لكي تسجل الطفلة. الاسم؟ سألتها. «رونوش ـ أجابت ـ رونوش الحلوة».

وضعت سماعة الهاتف مكانها. أدخلتُ يديّ في جيبي البنطلون، شاعراً أن كل ما قلته وسمعته في بيت السيدة لم يكن سوى وهم. كم أرغب حقاً أن يكون مجرد وهم. عادني الجمود من جديد، الجمود والخشية والحيرة والقلق والحزن والصمت والرغبة في النوم؛ كل ذلك دفعة واحدة. نور الظهيرة البارد يتخلل زجاج النافذة المغلقة، يعبر هواء الحجرة ثم يغرق ثقيلاً لزجاً داخل وجه أخي المستلقي أمامي على كنبة

عريضة: أنا جائع، جائع، يصرخ، ينهض فجأة، يعلو صراخه: متى، متى، تعود الكهرباء اللعينة لنسخن الطعام الذي طبخناه في وقت متأخر من ليلة أمس؟!

عشرة أعداد من مجلة «المحامون»

لديّ الكثير، لا تقلقْ! طمأنْتُ أخي. سنتغلب على البرد. هذه عشرة أعداد من مجلة «المحامون»، هناك أعداد أخرى. في كل عدد أكثر من مئتي صفحة. أوراق عريضة سميكة، جيدة للحرق. هيّا! حملَها أخي إلى مدفأة أولاد عمي الصغار. في طريق صعوده إلى الطابق العلوي من بيتنا، رفعَ صوته، كأنه أراد أن يصرخَ، أن يبكي: هناك قطع خشبية، قطّعْناها صباح اليوم من صندوق البندورة القديم. سنضيف الورق إلى الخشب، سيكفينا الليلة. ناديته: أخبرْ زوجة عمي، أن تضع «الجَيْدان» على فوهة النار. لا تنسَ. ردَّ عليَّ: حسناً، حسناً!

نهار اليوم التالي، اشترينا كيسين من الفحم. سينفعانا لتحضير الشاي.

سماءٌ رمادية، كلّها غيوم ملساء متراصّة خفيضة. الهواء أبيض. يبدو أنها ستثلج، أشعرُ، توجعني كليتاي، أعضّ أسناني، أصمتُ.

رعشات متوالية سريعة ترتعش أوراقُ شجيرة البرتقال النحيلة، مثل فمي ترتعش. الزغب الأشقر أعلى شفة أخي يلمع في ضوء الظهيرة البطيء الشحيح. اثنتا عشرة بيضة من أجل الغداء. السلق أفضل من القلي. نوفّرُ الزيت، لن نضطر إلى جلي الصحون. كل واحد يضع بيضتين

على رغيفه، ثم يلفّه. عندما تعود الكهرباء، نسلق البيض على السخّان. نحتاج إلى نصف ساعة فقط. اسمعْ، أطفئ سخانَ التدفئة، عندما تحضّر البيضَ. السخانان معاً يفصلان الكهرباء. لا تنسَ!

أجوع، فجأة أنسى أنني جائع. لا أحد يصدّقني. مصطفى، ابن عمّ آخر لي: اسمعْ، هذه مئة ليرة، خذْها إلى تلك المرأة، التي بيتها أمام بيت الأستاذ محمد، قرب بيت صديقك جوان، أعطها النقود، قل لها هي من بيت عمي، جاركم قرب الجامع الكبير، هيّا!

شارع النّهار.. أبله شارع النهار

ها هو. أنتظره، كل يوم. لا يتكلم إليّ. بهذا يظن أنه يخدمني ويحميني. شارع النهار. من جديد، الأبله ينظر، يرى. فتحتا الأنف طويلتان قذرتان، تشمّان رائحة مخزن المؤن الشاملة، رائحة الشغل الذي لا يشبه الشغل: سكر، جبنة، زيت، علبٌ، علب كرتونية من حلب، من دمشق، من تركيا، من الأرض، الأرض! الفم مضمر رقيق، الخطوة قصيرة مترددة، كأنها تتحرك داخل النفس لا على رصيف الشارع. قصّابٌ، مرَّ قصاب ضئيل الجسم قربه، وارتفعت التحية، الواجب أن ترتفع وتتبخر، من الشفاه نجَتْ لتمضي إلى السكاكين المعلقة داخل دكان عميق معتم. لا ضوء في البيوت، الشارع مبلل، الهواء رطب بارد، أوراق الأشجار سعيدة، تبدو سعيدة. الكل يعمل، الكل يرغب، الكل كسلٌ! هذا هو الآخر، الغنيّ، حليق الذقن دائماً، مومياء. تاجرُ ذهبٍ، صيرفيّ، متعهد عقارات، لاعبٌ، لاعب جيدٌ، هو يعرف كيف يلعب. المسجد خلف الأبله، المطر بلل الوجهَ الإسمنتي الجامد العالي لطرفه الشرقي. إلى المقبرة، إلى المقبرة، توفيت العجوز الهرمة الخرفة. ستدخل المسجد أول مرة، ثم تخرج. لها تسعة أولاد. جيد. أفلحت إذ أنجبت تسعة، كانت تقدر أن تنجب أكثر، لكن هذا كفاها، والخرف أنقذها من ذل الشيخوخة والمرض. الخرف ليس

مرضاً، إنه هدية. كانت صاحبة نكتة، كانت ظريفة. شكراً لله، هو أيضاً عاملها بلطف إذ منحها ما تحتاجه. الصحفي الوليد العنيد النشيط الأعمى، يكلمني، أرجوك فقط راجع الرسالة. حسناً، أين هي؟ اكتبْها، يجيبني. أرجوك، فقط لو ترسل لي المسودة، أما من مسودة للرسالة العظيمة التي ينبغي أن أكتبها؟!

هذا نادٍ جديد، هو الآخر جديد كالموت، كالمستقبل. نادٍ مغلق، سقف جلدي متين عال، عال جداً. عشب بلاستيكي في الأسفل. الشباب كل يوم هناك، لا ملل، البلاستيك علامة اللا ملل الاستهلاكية الإجبارية. هناك هم مدفوعون بقوة نحو الهدف: كرة القدم. نعم، إنها لعبة، سياسة، خداع، نهاية ما. لكن النادي عفن، إلهي، ألا ترى كم هو عفن؟!

حسناً، أين هي؟ لماذا لم تخبرني من قبل؟ نسيت، سامحني، غداً أرسل لك النقود. ماذا؟ ارتفع السعر من جديد؟ هذا هو الجديد الحقيقي: ارتفاع السعر.

نفد المازوت، نفد الغاز، لا كهرباء في البيوت. الطعام، ينبغي العثور على طعام. كتبٌ، لدي كتب، فلنحرقْها، لنضعها تحت اللحم، لدي نصف كيلو مجمد منذ شهر. ليذبْ، لينضج، ليأتِ الناضج الساخن. سينقذنا اللحمُ الذي يعذبنا ويهيننا. ماذا؟ خطوبة جديدة، خبر مفرح، ثمة من ينقذ أحداً ما من الضجر، من العزلة الموّاءة. الخطوبة هذه تنقذنا من الضجر القططي المهترئ. الأخ خطب خطيبة أخيه السابقة، البنت وافقت من قبل، وافقت الآن، ستوافق غداً. رائع.

من المستفيد؟ هذا سؤال قذر. المنفعة قذرة.

مظاهرة أخرى. هذا لا ينفع صدقني، أقول للأبله، هو لا يرد، يقول إنه بخير، إن الطريق لم تزل صالحة، لا فرق، أرد عليه، وماذا تقصد حتى إن كان هناك فرق؟ لا أرد هذه المرة. الأبله أقوى مني، هو أقوى

مني، أعرف. فلأصمت إذاً. مثله لأصمت. الأب سافر، الأولاد مع الأخت. لا بأس. ثمة من يساعدهم. لا تخف، أقول، لا تخف. فقط، اخرج، تمشَّ قليلاً مثل الأبله، وسترى ما يراه دونما خوف.

عَضٌّ، عُضْوٌ، هُوَ هُوَ

حَضٌّ عَضٌّ، لقاءٌ عقابٌ. وحدها الجذور الضعيفة سوداء نقية. بلا جدوى ـ كأنما واجبُك أن تحمي ميتاً ـ محتقرين، شامتين، يستدركون، كاتّهامٍ مخزٍ، دورَ المثقَّف العضويّ. يطالبونك به أينما كنتَ يا أستاذ، يا عضْوُ. أين أنت؟ أنا المخاطَبُ، أنا، حقاً، العُـ ضْـ وُ؟

الهربُ، الوطنُ، جهدٌ مطلوبٌ مبدَّدٌ. كل ليلةٍ أتوقع قدومَ سارقٍ ما. نضالٌ مَرَضٌ عُضالٌ، فَعَّالٌ لما يريد، ربٌّ، تعالَ، إليّ، سؤالٌ، هيّا، لكنْ، رِدْفُها، سائرة كالضوء إلى الباب، يتموّجُ. خصرٌ ليّنٌ يهفُّ خلف ثنيات فستانها المزيّن بقعاً حمراء بيضاء فحميّة. أجملُ تنقّلٍ، كأنه النَّفَسُ مرئياً. هشٌّ ضئيلٌ، مع ذلك، ولعٌ مُرٌّ سقيمٌ مهيمنٌ مملٌّ.

لهبٌ، حوافٌّ زرقاء، كالقلب عضْوٌ، يرتجف، يئزُّ.

دَعْمُ الفنون طُعْمُ الفنون. حكمٌ بؤسيٌّ، سليمٌ رغم البؤس، دونه أيضاً.

تردُّدٌ، تعثُّر. نهشٌ. بَعْضٌ شبيهُ ضبعٍ. طَبْعُ افتراسٍ جَبَانٌ، متوارَثٌ.

استُرُوا المعاصي، خيركُمْ أتلفَ الشرَّ، اخلعوا المعاصمَ. النصرُ بالقتلِ حاتِمٌ. عضْوٌ، أيّرٌ، جاهزية قذفٍ منفِّرة، مَنْسَلُ البشر، عارٍ مخبوءٌ مرافِقٌ، يشتكي، إنْ تداعَتْ له سائرُ الأعضاء، فَقْدُهُ، لا يُعوَّضُ. طناجرُ

من توتياء لأجل مياه الشربِ، تتلاقى ترنُّ، تدقُّ البابَ، امرأةٌ نحيلةٌ، استغاثةٌ أخرى، صباحاً: أين أمُّكَ يا ولدي؟ حذاؤها بلاستيكٌ أسودُ لامعٌ، اختصاص كرديات فقيرات، تركتْهُ أعلى الدرج الحجري العريض، نازلةً بجورب داكن، مخفٍ أصابع قدم طويلة. هذه هي وصفة طبيبٍ من الشام. تخرجُ قصاصات من علب الأدوية الكرتون، ترفعها أمامي. سراجٌ وهاجٌ. ثلاثمئة ليرة مَعَها، تحتاج إلى مثلها. بردٌ، بيتي بعيدٌ، سأعودُ إنْ قدرْتُ، سأعود!

ثلاث عشرة محاولة فاشلة لإشعال الحطب الرطب الصدّ. حافظُ أسدٍ مهترئٌ يظهرُ على يسار ألف ليرة. ألفان ملتصقتان. ورقتان لزجتان ثمن جرة غاز. تردّدٌ، شرفٌ مهبليٌّ طاغٍ، جلّابُ كروبٍ. فُوَاقٌ شعبيٌّ.

محمَّدُ صالحٍ، مسلِمٌ، غادرٌ، لصٌّ عائدٌ، فقيهُ وعودٍ ونقل شائعات، محتال لُقِّبَ بـ «الدّوْلي»، سيدبِّرُ لنا جرة غازٍ. في الطريق، الوقت ظهيرةٌ، يسلم عليكَ الدولي يا مخبولَ الوجوه، سلامٌ ماهرٌ، يطمئنُّ علينا، نحن الدّود، كتفاه من الخلف تأكلان عينك. آزادُ، حرامي الحارة، ذو الوجهِ الكوسيِّ المريبِ، نصف المجنون، يبادلك السلام، إثْرَهُ.

عَيْني بَيْني. نَمْنِيْ، النعاس، فقط أرجو واسترحم يا أنتَ، المجهول، كُلِّيّ!

سيغلبنا النعاسُ. على الهاتف، استنجادٌ آخر. رجُلٌ حِبرٌ، حَبْحَبٌ، سياسي ضليعٌ، خبرة تجاوزت ثلاثين عاماً، متعهد خدمات محلية، سريعُ الكلام، ضحوكٌ، صفةٌ تسترُ تكلُّمَهُ غير المفهوم، يتكفل تأمينَ الخبز: ارتفع سعر المازوت، أنت تعلم. نعم. ارتفع سعر الخبز. نعم. موافقٌ، أنا موافقٌ. ألم ينته النهارُ بعدُ، أنظرُ إلى حفرة ماء صغيرة بلون التراب هو ماء المطر. انتهى النهار، لكن البرد والظلام يبدوان بلا نهاية.

لم نر نجوماً بمثل هذه الغزارة، مثلما رأيناها هذا الشتاء!

نجحَ. مَنْ؟ رأيته ليلة أمس، الشابُّ الناشطُ، يحضر اجتماع الدوحةِ، «لابتوبٌ» على كتفه، واقفاً باحترام حتى ولوج باب خشبي رائع التكوين. وَصَلَ. إلى أينَ؟ تجمَّدَ السؤالُ داخل فمي.

آه، أكملَ. صار عضواً. نظرتُ في لسان المتأسِّفِ الحاسِد، داخل لسانه العضو، في قلبه العضو، في عضوه العضو، العضو المحروم من لمسةٍ أساسية. يا للقاء، لقاء الأعضاء الخائب، كلّها رجاءٌ أن تلتقي!

خلافاتٌ على المساعدات بين الحزبيين والمستقلين، فروقٌ وهميّةٌ لفظيّةٌ، سهلةٌ رائجةٌ، مخيِّبَةٌ.

حزبنا أفضل، حزبُنا، أنا ما عندي شيء آخر، ما عندي شخصية، نحن أكثر عدداً، حزبنا، تعلَمُ، لدينا جمعية خيرية، نائمة، جمعية وكتيبة مسلحة. أصرخ كاتماً الصرخة اللعينة الملحة: أحزابنا أحقادنا تتعاضّ، كمؤخرات الكلاب تتلاصقُ.

والـ «ب. ك. ك» يا صديقي الـ «ب. ك. ك»؟ «استلموا» المخفر، استلموا صالة الرياضة المغلقة، استلموا المدارس، استلموا أمن الدولة، استلموا مبنى الأمن السياسي، استلموا مقر المخابرات العسكرية وسط البلدة، مبنى البريد القديم، نظفوه، دهنوه. جميل هو مقر التحقيق الجديد. استلموا ذخائرَ الجثثِ كلِّها، هاهم يتمرغون بها، يذيقوننا طَعْمَ الجسد الإنساني، نستحقه، مسحوقين نستحقه.

صورة ضخمة لـ «عبد الله أوجلان» تطل على الشارع العام، نظرة ثاقبة قرب نجمة النضال الوبائيّ. ابتسامة «عبد الله أوجلان». شاربٌ فحلٌ، صمدٌ أحدٌ صمدٌ. عمَّ تبحث؟ عن وجهٍ.

كان لحافظ الأسد سنٌّ ذهبية ضاحكة، تلمعُ حين يبتسمُ. كنا نرى سنَّه الغالية. لا سنّ لابتسامة أوجلان، فقط، حواجبُ قويةٌ، شواربُ قوية. على كل حال، الذهب قوةٌ باردة، باردة جداً، لا تطاقُ. عملة العملات، هو

الذّهب، السرُّ، هو هو، اللاشعور، الفريدُ. لا سرَّ. لم يعد من سرٍّ ليفضح. ماذا نفعل، دون أسرار؟

عضٌّ. على هواء الصدور عضٌّ موجعٌ. ألم تر بطنه، خطيبَ الجامع؟ بطنٌ وقورة. وقْرٌ هُوَ هُوَ.

علبة شموع جديدة. صناعة تركية. بكم؟ 420 ليرة. واه! كانت بـ 260 ليرة، قبل أسبوع. ممن اشتريتها يا غبيّ؟ يخجل الموصوم، يحمَرُّ خدَّاه، المسكينُ المخدوعُ الخدوم. من قريبنا، ذو اللحية، الهارب من جحيم حلب إلى جحيم الأهل الأليف، يصلّي هُوَ في الجامع كلَّ يوم جمعة. قريبنا، آه، عرفته، هُوَ هُوَ. هذه هويتنا، ضرطة الانتماءِ الجامع المانع. أخجل أثناء حضور المآتم. حياءٌ، الموت حياءٌ كالعضو، هو، لصيقُ المرء حتى موته. عمَّ يتساءلون؟ عن البلد الأخير، عن اللانهاية الخانقة. انظُرْ، جلبوا الحطبَ، من كل نوعٍ. دخانٌ، ليلة تلو أخرى، يحرق الأنوفَ والحناجر. سُعالٌ هُوَ حتى مطلَعِ الفجر.

عضوٌ آلةُ عقابٍ، حَضٌّ عَضٌّ، هُوَ هُوَ.

يَــوْمُ طَـهَ

طَهَ. ماتَ طهَ اليومَ، دونَ الأربعين، مات. رقدَ ثلاثةَ أشهرٍ، حتى تعفّن الجسدُ، واخضرَّ الوجهُ كورقةٍ. «فَلْتَخِلَّ لعنةٌ على النقود!». كلماتٌ يتيمةٌ ردّدَها المجنونُ الطيّبُ، بطيءَ المشي كان، يبتسمُ. ابتسامةٌ حوّلتِ الثقلَ إلى ريشةٍ خفيفة. طهَ الرّيشةُ طارَ اليومَ، استسلمَ للنوم الأخفّ الأبعدِ، اختفى عن البلدة الضيقة المرتبكة المحاصَرَة بقوات الحماية الشعبية، من سجن الخطوة الصعبة تخلّصَ، من أوضاع وضيعةٍ نجا أخيراً، كما ينجو كلُّ مَنْسيٍّ هائلٍ، لكنّ هواءَ النهار يتموّجُ بالريشة اللامرئية الآنَ، بابتسامةٍ بلهاءَ عظيمة:

هديّةٌ منقِذَةٌ يا طهَ السَّعيدُ!

ضوءٌ شتائيٌّ دافئٌ يشعُّ. النَّعشُ المستطيل، متمايلاً على الأكتاف، يجرُّنا إلى المقبرة. أكياسُ ملفوفٍ معروضة للبيع، كراتٌ للقَطْع تتراكمُ، تلمعُ على حافة الرَّصيف. ملفوفٌ رخيصٌ مبهجٌ للأسنان النقديّة الناظرة. لونٌ باهتٌ واهنٌ باردٌ يمسُّ بردَ عظامنا المهانة المنكمشة الملبِّية.

أحدَبُ غالِبُ صمتٍ، وجهٌ ضامرٌ، حاجبان غليظان فوق عينين برموشٍ طويلة. عنقٌ متصلةٌ بالكتفين، رجلان طويلتان رفيعتان، ذراعان طويلتان، بيّاعُ بنزين. مهنةٌ جديدة سهلة تُضافُ إلى محل بيع الفروج.

يقترب من علبة شفافة بحجم لترين. بنزين مرآهُ بلون البول، أصفر زيتيّ، شبيهُ بيرة عكرة. ينزل رئيس البلدية من سيارة زرقاء. ذقنٌ حليقةٌ، هدوءٌ بَطْنيٌّ لا مبالٍ. رفاهيةٌ ناهبةٌ منغلِقَةٌ تحاصرُ الجسدَ المغطى ببدلةٍ محترمة، يقترب من العلبة، عينُهُ عليها وحدها. يدفع للأحدب، يحمل العلبة بأناقة، يحذر ألا يتّسِخَ، يضعها داخل «الباكاج»، يتراجع الأحدبُ إلى منزل طيني قديم. تلمع بقعةٌ فارغة كظلٍّ صغير جميل مكانَ العلبة المرفوعة. يأتي الأحدب بعلبة ثانية، يضعها مكانَ علبة الرئيس، على الخط الدائري نفسه. طِباقٌ ساحرٌ. لا يسأل الرئيسُ الأحدبَ من أين أتى بالبنزين، لا يسأل الأحدبُ الرئيسَ من أين أتى بالنقود.

ضحكةُ تَلَفٍ مكتومةٌ منتَقِمَةٌ وجَّهَها إليَّ صبيٌّ ذو سنٍّ أمامية منخورة! بائعُ تبغٍ مهرَّبٍ، فقيرٌ نابحٌ كقلبي. دخانُ سيجارة يتلوّى، يرتفعُ قربَ دكان بائع اللبن ذي الملامح الجليدية القاتمة. احتقانٌ ضارٍ يشتعل على خدَّيه. محرَمَةٌ نظيفة مرمية. ألن ترفعَها عن الأسفلت، تدفعها إلى جيب معطفك الأسود الطويل؟ عيبٌ، أنتَ في جنازة، غير جائز أن تنحني لأجل محرمة مهمَلةٍ! إنها حياتي، ألن تسمح لي أن أخبّئَ حياتي المهملة؟ أدفّئها بجيبي، أضغط عليها، أتسلّى بلَمْسها.

«عامودا. عشٌّ قلوبٍ». يرتفع الصوتُ من مسجلة دراجة نارية، سرعةٌ هائجة، شجاعةٌ هاربةٌ مقيمةٌ! «شَيْدا»، موهوبٌ محبوبٌ، مسافرٌ إلى ألمانيا الحبيبة، السويد الحبيبة. حقاً، ألم يسافرْ؟ فرصةٌ ضائعة ثمينة، إنْ لم يقتنصها طائرُنا المخمليّ، ضاعتْ على مالكِ الصوت الرّخوِ اللّيّنِ. على اليسار رفوفُ مخزَنٍ مُحزِنٍ، حتّى السّقفِ العالي، ممتلئةٌ علباً وأغذيةً. تحضيرٌ جيدٌ لغشٍّ ضاربٍ. احتكارٌ مرغوبٌ مزدهِرٌ. تَقَدَّمْ، هواءُ الأجداد سيرحّبُ بك بعد قليل، تقولُ: تعبيرٌ عسكريٌّ، إلزامٌ، ضرورةٌ.

على تراب المقبرة ظهرتْ دوائرُ خضراء صغيرةٌ تحملها سيقانٌ

نحيلة قصيرة، انثناءاتٌ مضمومةٌ متكسِّرةٌ مدهشة. أبكرتِ الخبّيْزَةُ في الظهور هذه السنة. حديثٌ جانبيٌّ: هولير لن تتطور، لأنها مدينةٌ أفقيةٌ. قبورنا أفقية، أول مرة لاحظتُ أنها أفقية. رجلٌ في السبعين، لم يتوقف عن الكلام. عينٌ داكنةٌ، شَعْرٌ رماديٌّ. الحلمُ هيّنٌ هادئٌ متكاسلٌ. العين فقط تحلمُ. تواصلُ الرّفوشُ عملَها الصائب، عملٌ قديمٌ نافعٌ. ترابٌ أحمرُ رطبٌ يغطّي كفنَ طهَ. تهامسٌ كئيبٌ، تحياتٌ معهودةٌ، كما لو أن الشفاه لا ترغبُ في قول شيء، أي شيء.

تقارَبَ المشيّعون، كادت الأكتافُ تتلامسُ. صوتُ إمام الجامع، نقيٌّ، واضحٌ، فصيحٌ. ليلةَ أمسِ، ربّما، جامعَ زوجتَه؛ طويلةٌ طاهرةٌ، بَشَرةٌ بيضاء. هذا سرُّ نقاء الصوت، أما الفصاحةُ فنَبْعُها تلاوةُ القرآن الكريم. احتمالٌ يختلطُ مع طلب الرحمة والمغفرة لطهَ من ربِّه، ربِّ السّماوات والأرض وما بينهما من أيامٍ لا تُعدُّ ولا تُحْصَى!

حَلْقُ شَعْرِ العانة، أليسَ من السُّنَّة الشّريفة؟ السُّنَّة ضربان: أقوالٌ وأفعالٌ. حلْقُ العانة ضربٌ فعليٌّ.

لقَّنَ الإمامُ جثّةَ طهَ حجَّتَها، لقّنَنا نحنُ. درْسٌ عبرةٌ بالعربيّة أولاً، ثم بالكرديّة. علامةٌ أخرى لقيامة الوحدة الوطنية السورية. يجيد لغتين، شيخُنا موَدِّعُنا إلى اللقاءِ الأعرى الموحِّدِ. آمين.

من عامودا إلى بيروت

مساءٌ آخَرُ معتم كما هو حال كل الأماسي منذ شهور طويلة. رائحة الصيف تنتشر لتحلّ محلَّ آخر مطرة وهبها أيارُ المغبرُّ إلى سهول الجزيرة، شمال شرقي سورية. في عامودا وقامشلو، يعود الأهالي في وقت مبكّر إلى بيوتهم. مصابيح صغيرة تُضاء هنا وهناك، مصابيح شُحنت لساعة أو ساعتين فقط من النهار، توافرت فيهما الكهرباء، مصابيح أخرى (لمبات حسب اللهجة المحلية) تشتعل على الكاز. شراء مولدات الكهرباء في ازدياد، لمن يملك مالاً كافياً، كذلك الأمر بالنسبة لمياه الشرب، فلأول مرة تباع من صهاريج تجوب حارات القامشلي، المدينة الأهم في (كردستان سورية)، على وصفٍ سياسيٍّ طارئ.

بواكير الصيف لا تطمئِنُ أحداً، موسم هذه السنة بلا فائدة، حقول القمح المروي أثقلتْ كواهل المزارعين. ستختفي الزراعة البعلية بسبب توالي سنوات الجفاف، حسبما يرى ناشطون زراعيون. موجات الهجرة القسرية لن تتوقف قريباً. عائلات كثيرة تنتظر أن ينهي أبناؤها تقديم الامتحانات السنوية، وهي تؤجَّل من موعد إلى آخر، حتى تترك البلاد، إلى كردستان تركيا، أو كردستان العراق، أو أوروبا عن طريق مهرّبين مختصين.

في مدخل مدينة الحسكة، مركز المحافظة، ثمة شباب يلعبون كرة القدم في صالة كبيرة، بناها نماذجَ منسوخةً عن بعضها في أكثر من مكان، متعهِّدُ عقاراتٍ تركَ البلاد التي أثْرَتْه. داخل المرآب، معظم المسافرين من الجيل الشاب، ووجهة أغلبهم هي بيروت. حواجز قوات النظام، تتابع مع حواجز الـ (p.y.d) شقيق (p.k.k) الكرديّة، في شبه تنسيق غريب يُسمَّى لدينا بالأمر الواقع، ليبقى غير مفهوم، حتى تخوم الحسكة الجنوبية الغربية حيث تبدأ أرض شبه صحراوية. ما إن تصل إلى الرقة، حتى يتغير الحال كلياً. مدينة مضاءة بالكامل، صامتة، وعلى الجدران المصبوغة بالأبيض تقرأ: «لا غالب إلا الله» أو «الله أكبر» أو «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

«كتائب عمر بن الخطاب»، «لواء المنتصر بالله» تحرس مداخل المدينة وبلداتها التي تُقصَفُ بين الحين والآخر. وجوه العسكريين متشابهة، اللحية والكلام القليل سمتان مشتركتان بين جميع من حمل السلاح. غدت الحربُ أليفة، ويبدو أن إطالة مدتها نزع عنها طابع الخوف والخشية.

كل واحد منا، يتوقع أن يخضع لتحقيق من قبل أي حاجز. قريباً من تدمر تبدأ حواجز النظام بالظهور من جديد. رجل في الأربعين بدين، يصعد الباص ـ تتذكر واحداً يشبهه كان صاحب محل فلافل على معبر نصيبين ـ قامشلو، بالمصباح في يده يوقظ شاباً نائماً: «هيه، منذ لحظات كنتَ في استراحة، فِيْقْ، تنشَّطْ، طلِّعْ هويتك!». على تلال جميلة خفيضة ناعمة تنشر الشمس لوناً أحمر بطيئاً. ثلاث شاحنات ضخمة تحمل مواد معدنية مستعملة تتجاوز حافلتنا. تفتح عينيك، فتجد الأشجار تركض على يمينك ويسارك. أنت في مدخل طرطوس الآن. بقرات ترعى في مرتفعات محيطة. تصل إلى أول محطة في الساحل السوري. رجل

جائع يطلب موزاً. يرد البائع: 300 ليرة. رقم مخيف. يُنزِلُ السائقُ جرَّتَيْ غازٍ فارغتين إلى «أبو حسين»، الذي يتكفل بتعبئتهما، من هناك ستعودان خفيةً بعد أن توضعا محل جالونات مياه الشرب، إلى كراج القامشلي، إلى بيت ما، مطبخ امرأة ما. صورة ضخمة على يمين الحاجز الأخير تجمع الرئيس الراحل حافظ الأسد مع نجله الرئيس بشار، وفي الخلفية لحيتا السيد حسن نصر الله والمفتي حسّون: «الأسدَيْن في حِمَى الحَسَنَيْن». هذا آخِرُ حاجزٍ قبل الوصول إلى معبر العريضة، هناك سيخرج قانونيٌّ ضد شاب هاربٍ: أنت موظَّفٌ، لم تحصل على إذن بالسفر، لكن الإذنَ القانوني العظيم يُحَلُّ بألف ليرة يخرجها الشابُّ مرتبكاً أمام أصدقائه. أربع عشرة ساعة من أقصى شمال شرقي سورية، مروراً بالرقّة وتدمر والسّاحل، تحملُ معنىً واحداً: السّلاحُ واللامبالاةُ والفرار.

«شهناز».. مقاطع من المحكمة

بعد وقوفي المتردد أمام باب المحكمة، كنتُ بحاجة إلى ثلاث عشرة خطوة لأكون في غرفة رئيس الديوان ذات الطاولة العريضة الخفيضة. مسافة كافية وحاسمة لتحويلي إلى شخص آخر. ما كان في بالي أبداً أن كائناً آخر سيُخْلَق بداخلي عبر تلك المسافة الضئيلة القذرة. ضآلة وقذارة قادرتان بسرعة همجية على إرغام إنسان (عادي) على الامتثال لمزايا وضاعة مدمِّرة! لأعترف الآن أنني شخص وضيع. ربما في ما سبق لم أكن سوى صورة تنتظر تحقُّق ما أنا عليه الآن؛ فما قادني إلى سوء التحوّل والرضوخ المذل اللذين كانا جزءاً من حياة سابقة تضمر الشرَّ وتتمنى لو كانت في الحقيقة شراً خالصاً، هو استعدادٌ خفيّ ـ ومتحمس في آن ـ خفي وعميق يهتبل الفرصة المواتية...

***

لأعترف بداية أنني شخص وضيع. آمل ألا تتسرّع في إغلاق الكتاب الذي بين يديك، أيها القارئ المحترم. إنني مهتم اهتماماً عميقاً وجاداً، وأفكر بالطريقة الأسرع والأصفى؛ الطريقة التي تذيبك خجلاً ودواراً. آمل ألا تنتهي هذه الكلمات إلا بعد أن تكون قد فقدت وعيك ورصانتك. ثمة شيء مزيف في الوعي العام، ثمة ما يجعل الرصانة مضحكة ومملة

معاً، ما لم تكن شكلاً أخلاقياً من أشكال الخبث المتوارية، تلك التي تجعل من الأخلاق درعاً لحماية الأكاذيب!

***

عندما دعاني رجل المحكمة للشهادة حول وقوع الجرم، لم أخشَ الأمر قط. إنها المرة الأولى التي أقف فيها بعد حلف اليمين المعظمة، أمام قاضي الجزاء. كانت غرفة مربعة ذات سقف خفيض أبيض مبقع ورطب، ولم يكن سوى نافذة واحدة عريضة مقفلة. ثمة ما يجعلك تشعر بالخدر والخواء وأنت تنظر في غرفة مربعة ضيقة بلا تهوية جيدة. لون الستارة الأصفر وضآلة سُمكها الخشن سمحا لضوء النهار بالتسرب بهدوء وتكسّر بطيئين. كان أحد المحامين جالساً بفم جاف فاغر، وشفة مرتخية، وهو ينظر مبتسماً وجامداً في وجه القاضي الممتلئ الحليق، وبقربه استند، ثم جلس، إلى كرسي خشبي، كاتبه ذو البطن الكبيرة. لا أعرف حقاً ما إذا كانت شهناز قد حبلت من ابن عمها الموقوف. سمعت أنها قالت لزوجة أخيها أن ابن عمها هو من قام بالفعل. لكن هذا لا يكفي للثبوت. لا دليل لدي حول موثوقية زوجة الأخ. وإذا ما كانت شهادتي على السماع فإنها بلا شك قليلة الأهمية، إذا ما قورنت بفحوص مخبرية أو مشاهدة عينية أو اعتراف حقيقي. لكن المحاكم عندنا لم تلجأ بعد إلى فحوص كهذه، رغم كونها دقيقة وقاطعة. دفعت شهناز حياتها ثمن الحَبَل غير الشرعي من شخص مجهول. قتلها خنقاً ابن عمها الموقوف، قتلها دفاعاً عن الشرف. وأنا الآن في المحكمة لأشهد:

ـ ما ذا تعرف عن المغدورة شهناز؟

ـ لا شيء خاصاً، لكنني سمعت أنها حبلت دون زواج، سمعت بحبلها بعد قتلها.

ـ وقبل القتل؟

ـ صبية عادية، تعيش مع أمها وأبيها. النساء عندنا كما تعلم سيدي متحفظات، خاصة أنهن يمكثن في البيت عادة، ثم إنها كما تعلم قاصر، وغير متعلمة، فلا يمكن الاختلاط خارج إطار العائلة، وهي في هذا لا تختلف عن مثيلاتها. وإذا كانت لها علاقة غير شرعية فهي على الأغلب ستكون داخل إطار القرابة العائلية.

ـ أي أنك تشهد بأن الذي افتعل بها هو ابن عمها محمود، الموقوف؟

ـ ما أعرفه، كل ما أعرفه على السماع فقط، أنه قيل إن ابن عمها هو من قام بذلك الفعل، لكنني لا أعرف إن كان هو محمود أم غيره.

ـ أي أنك تشهد بأن شخصاً آخر، هو أيضاً من أبناء عمومتها، قد قام بالفعل؟

ـ لا، لا أستطيع الشهادة بذلك، ثم إنه من المحتمل أن يكون شخصاً آخر من العائلة من غير حصره بأبناء العمومة فقط. من المحتمل كذلك أن يكون أكثر من شخص واحد! بل ربما يكون شخصاً مجهولاً من الجميع. الشخص الوحيد الذي يمكنه الاعتراف أمامك هو الفاعل نفسه، وقد يبدو هذا لك مضحكاً، فمن يعترف بجريمة تودي به إلى الإعدام؟! مع ذلك فإن رجائي هو أن يعترف هذا الوضيع بما اقترف. شهناز وحدها تعرف، لكن متى تكلم قتيل في هذه البلاد؟ شهناز تعرف دون شك. ربما ـ ثمة أمر آخر ـ ربما يكونان اثنين: الأول اغتصبها، هذا إذا كان الفعل دون رضا شهناز، أما إذا كان برضاها، والفاعل من أبناء عمومتها، فإن الفعل حينئذ يغدو سفاحاً، لا اغتصاباً، إلا إذا كانت شهناز قاصراً، حسبما هو مدون في سجل قيدها المدني. شخص آخر قتلها، إما بعد أن نال منها، أو لا. من يعرف يا سيدي؟ أتراه حقاً قتلها بدافع الشرف؟!

***

الأيام هنا مريضة، وأنا ابنُها. لأشهر عديدة، عكر المزاج وخامل، سقطتُ أسيرَ ثقل وجه كاتب المحكمة وضخامته. خدان مرتفعان ممتلئان لحماً. رقبة ثخينة، غبب مكتنز لاحم. وجه كله لحم وامتلاء كأن لا أثر لأرق أو حزن أو حنين فيه. كأنه تكوّن من الأكل والنوم لا من التعب والشوق. كأنه من شهوة قاحلة فحسب، من تكالب صقيعي! ثمة ما جعلني أرى شبهاً كريهاً ومستفزاً بين وجه الكاتب وضخامة بطنه. يا له من ثقل مزدوج! ثقل هو الشكل المرئي لوعي شهواني، لعنف متكتم وحقد شرير! وعي شهواني لا يتعذب أو يتبدل أو يغامر قدر ما يمتلئ حبوراً وقوة وتكالباً. لا شك أن رجل المحكمة هذا لا يأبه لشيء. يا لها من شراهة دنسة وعدوانية مخزية! إن رجلاً بهذه الصفات ـ يخفيها خلف دخان سيجارته وجهارة صوته وادعائه العونَ والنصحَ والتبسُّمَ ـ لن يتوانى قط عن تحويل عمل المحكمة كله إلى غائط يومي! حسناً. هذا هو الحال حقيقة، سعيتُ إلى إرضائهم، عن جهل وعن قلة حيلة، بل ربما عن رغبة عميقة ولا واعية في أن أكون عبداً خالصاً لطموحاتهم التي لا تعرف نهاية، وهي بالأساس شهوة ضارية وبسامة وممتلئة لجمع المال، شهوة لم تعد فقط في تكثيره، بل في حمايته والعثور كل يوم على طرق جديدة للاستغلال والابتزاز. يقسم مساعد القاضي أنه لا يريد سوى مساعدة الناس! ومن هم هؤلاء بالنسبة له؟ إنهم بضع جهلة يوميون، خائرون، مستعجلون، مسحوقون وبلا عطف. وهو لا يسعى سوى إلى إرضائهم. إنه لغريب حقاً أمر محكمة يسعى كاتبها إلى الإرضاء لا غير!! إرضاء ليس سوى قناع وكذب.

***

أخجل من جمالها المؤجل، أخجل من نقاء عاطفتها الساخنة، من عضّات أسنانها على رقبتي ووجهي وساعدي. لم يكن أمامي سوى استسلام سريع وفارغ لهذه الشهوة الضارية التي لم تكن غير تعويض

عنيف وسخيّ عن سنوات عزلة مريرة وداكنة. اتفقنا على لقاء قريب. حدث ذلك في الصباح. دخلت من جهة المحلات الثلاثة المغلقة، كان ذلك أكثر أماناً لكلينا. فتحت الباب بهدوء، أحسست أنها مخمورة بانتظار هذا اللقاء. أسدلت الستارة، رغم بقاء جزء من زجاج الباب مكشوفاً لمن يعبر الممر الخارجي. تناولنا القهوة مع السجائر، جلست قربي، قامت، انحنت عليّ، رفعت وجهي لها، قبّلتني بخفة على شفتي، وعيناها تتألقان بابتسامات قلبها السعيد المضطرب.

***

صار ما أكره على ما أحب. حسناً إنني أتحول، مع كل خطوة إلى آلة فقر ضعيفة رديئة ومؤذية. لم يكشفني أحد حتى الآن، لكنني بحاجة إلى أن أعترف بكل شيء. لم أعد أطيق بقائي مخنوقاً وممدوحاً في آن. أريد أن تنتهي سمعتي الحسنة ـ وهي كذبة محمية وناصعة ـ أريدها أن تنهي حياتها الضعيفة بحقيقة كونها الانتظار المستمر لتحوّلها إلى أسوأ سمعة يمكن للمرء تخيّلها.

كنتُ منحطاً كاذباً، كنت بحاجة إلى هذا الجلاء مرة واحدة وأخيرة: (يحتاج المنحطّون إلى الكذب، فهذا أحد شروط وجودهم).

حقيقة وحياة. يا للتشابه المضحكِ! يا للتوازي البارد المهيمن!

كم نثق ونؤكد أنهما ـ هما فقط ـ متكافلتان ومتماثلتان! إذا كان من حتمية بينهما فهي في وحدة التعسف، في النتائج التي تتركها كل حتمية من عجز وتزييف. وحدة في الرماد، لا البرق. سبب الحقيقة هو الكذب، سبب الحياة الجهل. يمكننا إضافة ـ أليست كل حياة إضافة ـ اسم آخر لا يقل إرعاباً. إنه القانون، العلاج. لم نذكر العبث، العبث الذي يغدو معه العلاج عبثاً أكثر إتلافاً. لم نجد في حياتنا كلمة أشد وضاعة وزيفاً وعهراً من القانون!

قصائد

الليلُ شبَحٌ يلوي معاصمَ الظهيرة

اللّيلُ في كل مكان.

في مضارب الكريكيت، في ألوان كرات البلياردو،

وفي قفص مجلس الأمن، حيث يتبادل الندمُ وجوهَ الوقت الميتة.

الليل في الأعياد في المصافحات في العناقات،

على السلالم الخشبية القديمة،

أمام أبواب الأفران الضيقة،

الليل في الخبز، في اللعاب الخائن،

وفي غرف الأسنان العفنة.

***

الليل يقيد أيادي الرحمة المجنونة،

قاصفاً عيون الحكماء المتوارين خلف علبٍ صدئة.

***

الليل يتمزق على عتبات البنوك المغلقة،
الليل يهرع إلى الكلمات الخائفة من حناجر مهانة،
ألا ترونه يتنازع في لمعان الأظافر الباردة؟
الليل في كل نظرة، وفي كل قلب!

***

الليل يتقلص في نتوءات الحجارة المنسية،
على شرفات البيوت المحطمة،
في اللقاءات اللعينة يحبس الليلُ بخارَ الأنفاس،
وفي الكتب النابحة يبرز أنياب التعاون الزرقاء.

***

الليل سكينٌ تقطّع خدودَ الصباح المئة،
الليل عينٌ تسكب العذاب في خزانات العشب الفاتنة،
الليل شبحٌ يلوي معصمَ الظهيرة.

***

كالسّائرةِ في النّوم

تتوقف الساعات جامدة لتعاقب قلوباً هاربة.
الصباح من ثلج وأنين أخضر.
لا ينتهي البحر في رئة البحر
بل في أصابع شمسية تحمل أرانب الهدايا الثقيلة.
هناك يلتقي الصمت مع عيون النار الحزينة المتحمسة،
والنصر يتلف رجال الضحك المرير لكل كذب يشبه الوداع البارد.
ابقَ معي الليلة، الليلة فقط؛
الآن ستخرج الأمُّ سعيدة بابنتها الشقراء
الحاملة بابن الحليب المتروك بلا عون من أحد.

***

ثق بي، بصراخ مخذول،
بحجارة هذا المنزل المدمر، بريشة الديك الأزرق الوحيدة،

ستخرج الأمّ، رغم مصائب الجوع،

رغم الخوف الشبيه بحكمة أحرقتها مياه الربّ،

ستخرج كالوحل الرسّام، كرأفة فقيرة،

ولن تضلّ بعد اليوم،

ستصلُ، كالسائرة في النوم،

ستنجو لتطير مع أهدابك الموسيقية.

***

كأمنيةٍ خرساء

أنتَ هنا، تصغي وتنظرُ.
أنتَ وحيدٌ ومحاصَرٌ كأمنية خرساء،
تحزنُ لأنك تخافُ من أرض النسيان.
أليست هي أرضَ البشر؟
لا تجد فرقاً بين شارعٍ وجريمةٍ،
والخيالُ الذي يعذّبك تسألهُ أن يشفيك.
يدُكَ خبزُ حياتك التي لا تشبهك.
***

ألم تكن من قبلُ حليباً، بيتَ مصافحةٍ أو.. !
آه،
ألن تعثرَ على مكانٍ يحميك من رياح النعوت المزيفة؟
ترمي النهايةُ كرةَ الندم الثقيلة في صدرك،

والكلماتُ الأخرى، لن تسمعها بعد اليوم،

تحلّ مكانَ عينيك.

***

أليسَتْ هي الغيوم؟

أما من أحد يرى المياه؟
تنسى وتخدم،
تتموجُ وتنثني،
ثمّ تتساكن لتهدأ لتخدم من جديد،
وتنسى صرخات الثأر المعتمة.
أليست هي الغيوم،
تتداخل في الأعالي الممنوحة،
أليست غيوماً للصحبة الرقيقة الفانية؟
***

كل حينٍ تعرفنا وتحوّلنا
لكن، من نحن؟
من نحن إزاء مياه النسيان؟
***

آنَ الآوانُ، أخيراً

ماذا أفعلُ بفمي؟!

ليس لي، هذا المبتور عن العالم،

المفتون بلونِ الرمّان، بمياهِ الفجر!

مبلَّلاً ومرتعشاً وصامتاً،

أضعُهُ على حجرٍ باردٍ صغير،

وآن الأوانُ أخيراً

لأرفعه وألصقه بورقة زيتون

ليرى ربَّ الكلمات المسحوقة

ليحسّ بطعم السّلام الباكي!

***

لا يسأل، لا يردُّ

أزحفُ.
مثلي مثل سواي،
أواصلُ الزّحفَ.

مياهٌ خضراء ترتفع إلى شفتيّ.
يا للوفرةِ، يا للصّعود!
***

أحقاً أنا غيري؟
بين يدي الآلة ذاتها.

من يرَ لا يسأل،
لا يردّ.
***

لا «أينَ» بعد الآن

أعنكِ يجبُ أن أتكلَّمَ،
أنتبهَ وأصغي؟
يا شجرةُ، يا غصنُ،
يا ورقة، يا ظلُّ، يا نورَ النور!
أهذا نبعٌ أم صبرٌ
أم غناءٌ أم منظر المناظر الألف؛

لأجل من
هو يمنح العينَ ذا البهاءَ الشبيه بلغزٍ؟
قِفْني هنا،
لا «أينَ» بعد الآن،
لا هنيهة.

***

أَبْعَدُ من الصّمتِ والكلمة

أَوَ تريدون معرفة الرّبِّ، حقاً؟
تريدون تلك الصحبةَ الأبعدَ من الصمت والكلمة؟
هي لكم، الآن،
كما كانت بالأمس عشباً محاطاً بالندى.
ألا يكفي أنْ يلمسَ أحدُكم خدَّه،
موضعَ النسيم الفاني،
لكن الكاملَ بسبب النعومةِ لا الوقتِ؟!

أما من أحد يشهدُ جرحَ قبلةٍ
يرفعُ الألمَ كما ترفعُ النّارُ وجهَ الوجه؟
هل من جدارة أشدُّ وأقربُ؟
فقرٌ لم ينقلبْ يوماً إلى وادي الغنى البارد.
تلك شمسٌ في الأعالي،
قبل الكتب كانت، كما هي اليوم.

ساعدتنا ساعات الفقر

لطالما افتقرَ كل ربٍّ إلى الحكمة،
فقيرةً ومعينة ساعدت البشر على تحمّل الربّ،
فلم يصمتْ ولم يختفِ،
لم يلمس انعكاسه الزائل على وجه الماء،
أو عودته الأرقّ والأصفى
خلال برهة البرعم الصغيرة،
حين يتألم كل تفتّح مجهول صانعاً
للهواء فماً أخرس عظيماً.

لافتقارِه إلى تسلية رفيعة تبعد الضجر،
يواصل الربُّ أعماله،
رافعاً الجذورَ الواهية
إلى أفواه مريضة بظلال متجمدة،

متنقلاً من حياء الموت الموحش
إلى شُعَبِ العيش الوضيعة،
موحّداً إشارات الحجر،
تلك الأشكال الكاملة والقوية والممنوحة،
وتاركاً الأصواتَ الذليلة
تتعالى إلى طهارة نجسة مغرية،
غير محتشم،
بسبب القسوة لا النسيان الفريد،

يُرينا حياتنا:
ربٌّ لم يرَ نورَ دمعةٍ،
ولا اقترب من يد الأوهام
التي تصنع الشعوب وتحرقها.

بعيونه المغلقة التي هي عيوننا
يواصل الربُّ أعماله البديعة.
***

عشاء الندم والسرعة البطيئة

كلَّ مساءٍ نُحَضِّرُ عشاءَنا،
في عتمة مربكة أو خلف نورٍ شاحب،
مستعجلين قدومَ الأمور المخفيّة والمرعبة،
التي سرعان ما ستغرق وتُنسى
مثلما تتبدّلُ الآلهة وتتخاصَمُ وتَفْنَى.

نتوقّعُ أيَّ شيء حدّ فقدان برودة الخوف القاصلة،
أو متباطئين بسبب الرتابة المذنبة التي حوّلَتِ
الضوءَ والظلامَ إلى جناحٍ واحد ضعيف.

لكننا نبخسُ انتظارَنا المطمئنَّ للموت الطاحنِ،
نخسر لهبَ الشمعة الرقيق
ظلّها الناعمَ على وجوهنا،
ولا نرى مدّةَ اليدِ سوداءَ كالنّدم.

الوداعُ نَفْسُه يسعى إلينا.
من يلمسنا لن نشعرَ به،
لكننا نتضوّرُ فاقةً إليه،
كمثل أي راحلٍ يرجو،
دون أن يحسَّ،
رأفة اللّمسة الأخيرة!

***

بعيدةٌ كلماتُ أمّي.
صوتُها المفجوع المتباطئ،
أبعدُ وأحنُّ من أن يسمَعَهُ واحدٌ مثلي.

بينما تحضّرُ أغطيةَ مخدّاتِ النّوم،
تسألُ: أين الإبرةُ؟ أين وضعتُ نظارتي..؟
لمَ لا تذهبُ إلى الطّبيب؟!
خرّبْتَ جسمَكَ بالسّهر، بالتدخين،
وكلّ هذه الكتب..
لم تنفعك بشيء أبداً.

محتارة ومنهكة،

مهمومة بأسماء بناتٍ طيباتٍ،
للزواج، عريساً تحلم بي.

اختارتِ اللّونَ الأزرقَ، هادئاً وبارداً
كصباحٍ ربيعيّ يلمسُ يدَ يومٍ ماطرٍ.
ما كانت لتعلمَ أنها تختارُني لحفلٍ آخر،
يمنعني الليلُ، شقيقُ الأحلامِ الصّامتُ،
أن أهمسَ به لأحدٍ.

***

إشارات قاسية منسية

لأن الأمورَ، كما لم نعهدها من قبل،
رغم إشاراتٍ قاسية منسيّة،
نتساوى في لعنها ومحوها الآن،
لأنها ينبغي أن تحدث وتترافق دفعة واحدة،
مثلما تضاءُ وردةٌ وسط البرد والجوع،
كان عليّ أن أتكلم إلى الموتى كل يوم،
كل يوم دون توقف!

أن أسحبَ السّاعة من يدٍ مجهولة،
فهي قيّدتْ حياته، منهيةً عملَ المحايدين،
وصار من اللطف أن تهدأ،
لتتلقى، مثل صانعها، جرعة النهاية.

أن أجمّعَ الخبزَ للكلاب،

أن أرأفَ وألاطفَ فؤادَ النرجس المعذب،
ألا أصرخ، ولا أقنط ولا أستنجد،
أن أتقبّل السلامَ كنملةٍ تتلقى دعسة،
وألا أخشى خطواتٍ أخرى، سريعة طائشة.

ومع ليالي أواسط شباطَ،
أرفعُ عني عبءَ كلِّ لحظةٍ،
في حجرٍ،
مدّخِراً شكلي القادم،
ذاك الذي سيكلّم الشمسَ مرة أخرى.

***

عراةً نتموّجُ

الموتُ هذا الحارسُ الجاهل،
مع ذلك،
نصغي إلى مياه الملائكة الممزقة،
كبيت يمتلئ بضوء مفاجآت سوداء،
عراةً نتموَّجُ.

قديمة هذه الحكاية
بيضاء تبزغ لتمنحنا الصّمتَ،
صمتَ الورود الأخفَّ والأصعبَ.

تطفو الطرقُ حولنا بمتاهاتِ العبير العنيدة،
التي وضعنا فيها أقدامنا منذ البداية.
آه يا غايةً!
سريعاً نغرق،
وأيادينا تدفعُ ذهبَ ساعاتٍ خانقة!

لا مَكَانَ لهما سوى ابتسامةٍ

مرّةً حلمْتُ،
في أوقات البرد والمجاعة والقتل.
يا لَحَظّي!
يا لسلوى الخيال!
يا لندائي المنطفئ!

كانت الصّورُ حقيقيّةً ومُحِبّةً وعاجزة.
حلمتُ أستقبلُ اللّه في راحة يدٍ مفتوحة،
تاركاً ابنه، يتيماً وعارياً،
يسبح داخل يدي الأخرى.
وهأنذا أنفخ فيهما من حرارةِ فمي،
ليرتفعا ببطء كزهرتين تعضّان وجهكِ
ليصفحا عنّي هناك،

إذْ لا مكان لهما بعد الآن

سوى التألق حول ابتسامتكِ؛

التي هي أمّي، التي هي قبري.

بَيْتُ الحيوان

لا لتَسْتوليَ على ما تحبُّ،
ليس لها أنْ تحتكرَ أو تسيطرَ،
ولا أنْ تملكَ أيَّ شيءٍ، أيَّ شيء.

بصبر نباتٍ غارقٍ في النّمو،
تسيرُ إليه،
ليتحوَّلَ عبرها
ليكونَ اللَّهفةَ والبيت.

غافلاتٍ عن الموت،
ممتلئاتٍ برحيقٍ جنائزيّ،
حدّ بلوغ أقسى درجات الصّمتِ وأشدّها فتنةً،
تقضي الحيواناتُ أيامَ بهاءٍ أعمقَ من الخلود!

سواءٌ لديها إنْ بَقيتْ تمطرُ بغزارةٍ،
مازجة بذورَ الأرض،
أو تحت لهيبِ صيفٍ حارق
عادتِ المعاركُ إلى أسماءٍ ميتة.

بلا ملل وبلا اكتراث،
متكتِّمةً غائصةً في كيانها،
تجد طريقها في العتمة، في ضياءِ اللاسؤال،
دونما إفصاح، ترافقُنا وترشدُنا.

لم نرَ بعد، لم نندهشْ
كيف لم يلوِّثِ الخرابُ عينَ القطّ؛
هذا الزجاج المتنبِّهَ العريق،
تحت سيف العزلة، موَحِّدِ اليقظة بالنوم،
وفي الجلاء المرحِ الثاقب لقفزات جدْيٍ،
ما من مكانٍ لأي ندمٍ.

نحن ـ المكتفين بمنازل كالرّيح لا تحمي أحداً ـ
نتمرَّغُ في مياهٍ سرقاتٍ خسيسة.
مرة إثر أخرى،
لا نولي وجودَ الحيوان شأناً.

غير أنّه، كما يجدر بملكٍ حقيقيٍّ،
دون أن يضيّعَ الوقتَ،
كي لا يفسدَ التّعبَ ولا الخسارة،
لا يفرِّطُ بإرثه المدمَّر، بنا.

رباعيات

حانَ قطافُ الزيتون،

تناديكِ الأشجار.

يا سراجَ ليلي،

يا قلبي الصغير.

***

حملْتُ لكِ كتاباً،

إنّه قلبُ قلبي.

على طرف الطاولة باقٍ،

كلَّ ليلة، كلَّ نهار.

***

معاً دخلنا دكّانَ الفواكه،
معاً رأينا ثمارَ الفصول.
أنت لم تري عينكِ،
وهي تبتسمُ، وهي تلمعُ.
***

أحرقْتِ الطبخة ثانيةً،
خلطتِ كلَّ شي بكلِّ شيء.
يا طفلتي يا طفلتي،
حبيبُكِ أمُّكِ.
***

هذه حقيبتُكِ.
كم هي ثقيلة!
هذا مفتاحُكِ.
كم هو صغير!
***

عشتُ حياةَ سواي،
لأنها حياتُكِ.

حملتُكِ إليكِ،
حملتُكِ إليّ.
***

لياليك حزينة،
لأنها جميلة.
كلماتنا غريبة،
لأنها صامتة.
***

سابقتُ نومَكِ إلى لونِ عينيكِ،
قدّمتُ يدي لئلا تبردي.
نامي يا ندى الذّهبِ الطاحنِ،
نامي يا أخضرَ من كل ربيع.
***

أودّ أن أحدّثكِ عن ريلكه،
عن الوردة التي هي القصيدة.
لكنّ الخشية تضربُ فمي،
فمي المنذور للجراح.
***

الماضي لا يمضي،

فقط المستقبل هو ما يزول.

عندما أحببتُكِ،

خسرتُ مستقبلي.

***

تعرفون المتنبّي،

أعرفُ التّبنَ.

ثمة من قال:

«الحريّة علفُ البشرية».

***

كان النفّريّ طيفاً،

كان كلمةَ الكلمة.

لستِ بعيدة،

إذا ما أحرقَ طيفُكِ طيفي.

***

لا تذهبي إلى فرنسا يا حبّي،

يكفيك أن تقرئي موريس بلانشو.

عدا الخبز، عدا الجبنة، عدا النبيذ،

هناك الخيبة، النأيُ الجبان المهيمن.

***

مُوَاْ مُوَاْ مُوَاْ،

دواء دواء دواء.

كلماتٌ تتعثر مثلك،

أجملُ من كلماتٍ شافية.

***

صَهْ رَهْ قِ،

قافْ راءْ صادْ.

اللّه اللّه اللّه،

سها عنكِ عنّي.

***

نَمْ لَمْ فَمْ،

دوْ ريْ ميْ.

قلْ لي قلْ:

حِبْ نِي حُبْ.

***

من بلدٍ إلى بلدٍ،

هاجرَ قلبُكِ الطائرُ في قلبي.

كفاك بحثاً،

ما يؤلمك يشفينا كلينا.

***

لستِ ابنة أحدٍ،

أنتِ عشبُ خيالكِ.

ياه ياه ياه،

سترفعنا شمسُ الرياح.

***

قواربُ بهائك ترسو الآن

والمياهُ من حولها مياهُ قلبكِ.

كيف نجا من لم يغرقْ؟

كيف لم يغرقْ من نجا؟!

***

أسعارٌ سُعارٌ،

كلبُ القيمة ينهش كلبَ الحاجة.

تشعُّ الأنياب على أوراق وسخة،
أوسخ من الأيادي التي تعبدها.
***

أحملُ قنينةً لأكسر بها رأسَ الزمن،
الزمن الذي هو روحي وجسدي.
تعالي يا ابنة جمالك ويأسي،
أنا ابنكِ الباكي
***

ليلُك ليلُ مئةِ عامٍ،
وذراعُكِ زهرةُ أبيكِ وأمّكِ.
قمْ قلْ، قابلِ الزهرة،
أبوسعكَ النظرُ في عينِ زهرةٍ؟!
***

لم تكن لتشكو
لو ناولوا الخبز لقلبك.
لكنهم أخطؤوا
لا فم لقلبك حتى يجوع.
***

ساعةٌ هي شجرةٌ داخل العين،
أخضرُ الرّاحة غير حديقة الأيام.
قلتُ أرى، أنظرُ وأرى وأحدّقُ،
لكنهم غضبوا، صرخوا بساعة العين.
***

تقاسمتْ حبّات الرمّان ليلتنا الأخيرة،
محبّاتٍ كنّ كما يجدرُ بكلّ وقت.
دخّان الحرب امتزجَ بدخان النسيان،
نجونا لأننا غرقنا في لونٍ ألهبَ صمتَنا.
***

تفّاحاً قشّرْتُ لكِ،
على صحنٍ صغيرٍ وضعتُهُ.
كنتِ نائمة،
وانتظرتُ عينَكِ، انتظرتُ صباحكِ.
***

خذني قنّينةً في يدكَ يا أهبلُ،
هرمتُ كعِقْدٍ على صدرِكَ.

أنا أحبّكَ يا كئيبَ الدنيا،
أنا عسلُ خيبَتِكَ يا عاطلُ.
***

آه من امتلاء فخذيك بأزهار الليل
من الصباح يلمع كالندى على فمكِ!
أختبئ عنكِ في دمكِ، مثل مطارَدٍ
سكران أترنّحُ بين صحوِكِ ونومِكِ.
***

نوافذُ من زجاج ملوَّنٍ،
أطلَّتْ علينا.
هذه كنيسةٌ.
أهي كنيسة؟
***

تتلاحق اللعناتُ رائعاتٍ محسناتٍ.
من يد فتاة محرومة،
تأخذ تفاحة سلخَ الحبّ جلدها.
عينٌ حزينة، قلبٌ مطمئن.
***

طريقٌ صعبة تتجمد داخل لسانك الرخو،
الفكر ذو الملابسات المضحكة،
اللعاب السائل عن مدى البرق،
ليالي الذبح، النجوم اليابسة، المراثي كلّها!
***

امنحْني نَفَساً آخر،
كلمة أخيرة:
اللعنة في كل مكان،
اللعنة في كل خطوة.
***

هياكل الدول تتفحّم،
الشعوب ملّت تسطع يتيمة وجديدة،
كما لو كانت أقماراً طفولية
على القبور، بين الكوابيس.
***

التناقضات مضجرة عقيمة،
الضجر باب عافية مريضة.

الكنائس مضحكة كالمساجد،

الزرائب دافئة، والحيوانات رشيدة.

***

التاريخيون سفلة كالمجرمين،

سنتبادل الحقد بدل التحية،

لكن النعاس سيطوي رموش الأفكار،

القتلة يحلّون محل القتلة.

***

استمتعْ بوقتك،

كنْ سعيداً.

أيَّ رجاء تتوقع

ممّن يرسل أمنيات كهذه؟!

***

محللون، إعلاميون، خبراء.

مشعوذون، وسطاء، أكاديميون.

مثل هذا المزيج

لا يجلب سوى البلاهة.

***

تدمير العالم مصير لائق

لمن بناه على هذا النحو.

تعاسات مهيمنة،

سجون أفضل من المدارس.

***

أيها القاتل،

يا طفل دماغي المعتوه،

أسبقَ أنْ كنتَ

طفلاً لأحد؟!

***

الكلمة كلب أعمى،

الصمت صاحب قسوة.

لنمضِ معاً يا كلبي،

لنتسلَّ يا صاحبي!

***

نهايات الشرف

كمصائر الأجساد الحزينة.

العفونة مصير مشترك

للوطنيات الهضمية.

***

الذين يسمعون الهواء،

الذين يسمعون الهواء،

تأسرهم شمسُ الصباح،

بالدموع تحرقهم الذكريات.

***

هؤلاء أهلي،

الشحاذون، الكذبة، واللصوص

القطط، والأطفال البلهاء،

المساءات المرعبة، الوداع.

***

منحتِني اسماً ليس لي،

وهبتُكِ وجهاً ليس لك.

في لعبة المرايا اللطيفة،

في دمار الأقنعة.

***

خَبَلي ينقدُ عقلي،

قلبي يمحو لساني.

أنبعُ إلى...،

كلُّ جهةٍ حتفٌ.

***

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.

تحمل هذه الشهادة نصوصاً نثرية وأخرى شعرية تنقل شذرات من الحياة اليومية "العادية" في بلدة سورية "عادية" في زمن غير عادي.

استثنائية الزمن تسبغ على الوقائع النافلة قيمة فريدة. في هذا الزمن تصبح مخدتان بين يدي الأم صورة لقيم الإنسانية. وتصبح "نصف ليمونة يلمع البرد على قشرتها اللامعة" إيقونة للحياة السعيدة.. ويصبح نقيق الضفادع بشارة لانكسار قادم.

إنها شهادة عن ذاك الزمان، شهادة لا بد منها لأن التذكّر ضمانة لإنسانيتنا:

"....
من نحن؟
من نحن إزاء مياه النسيان؟"

بيت المواطن
للنشر و التوزيع